

## مثل من المقامية × "أسباب النزول" في ضوء ترجمتي (محمد محسن خان) و (محمد تقي الدين الهالي) "سورة التوبة نموذجاً"

د. نهلة زهدي الشلبي

### الملخص:

لما نزل المقال القرآني بلفظه وبيانه وعجازه، الذي كمننت معانيه فيه، وكانت أسباب النزول مكملاً لفهم دلالاته، سعت الدراسة إلى استجلاء فكرة "المقامية" لدى النحاة، ذلك أنهم عولوا على (المقام) عنصراً لازماً؛ لتمام الوصف وتفسير الظاهرة النحوية؛ لذا كان محور تقريبننا للدلالات اللغوية (المقامية) بالتطرق إلى التراكيب اللغوية متمثلة بأسباب النزول في ترجمتي (محمد محسن خان ومحمد تقي الدين الهالي)؛ وذلك بالتحقق من ارتباط الآية المترجمة بسبب نزولها سواء أكان سبباً عاماً أم خاصاً. وعليه، فقد توصلنا إلى أن (النظم والنحو) اسمان لمفهوم واحد، فليس (النظم) شيئاً غير النحو، كما أن النحو هو مراعاة قواعد النظم؛ وإنما يحسن هذا النظم بحسن التخيير والانتقاء لهذه المعاني النحوية؛ لتلائم المقام المناسب وتطابق الغرض المقصود، فتجوز مرتبة الصحة إلى مراتب في الحسن تتفاوت بتفاوت التوفيق في الربط بين هذه المعاني والأغراض المقصودة من الكلام.

### التمهيد:

#### المقام لدى علماء العربية:

تطلق تعريفات البلاغة من حقول مختلفة، لكنّها تلتقي جميعها في أنّها "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته" (١). وهذا القول هو صفوة ما أشار إليه القدماء؛ إذ يعتبر الجرجاني من الرواد الذين أشاروا إلى مفهوم (السياق) في بيان الدلالة المقصودة، وذلك حينما قسّم اللغة إلى مستويات، سمى المستوى المنطوق فيها بصورة منظّمة (النظم) (٢)، الذي أشار إليه بقوله: "وهل تجد أحداً يقول: هذه اللفظة فصيحة، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها" (٣)، فالنظم أقرب ما يكون مرادفاً لمفهوم السياق (٤)، الذي وضعه الجرجاني خير توضيح بقوله: "فقد أتضح إذن اتضاحاً لا يدع للشك مجالاً أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، أو ما يشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ" (٥).

والمقام عنده هو (الموقف) الذي يوظف فيه الكلام، وهذا يؤكد اختلافه عن مفهومي (السياق) و(النظم)، فقد ربط الجرجاني كلّ كلام بمقام استعماله، الذي يتخذ في نظره ونظر غيره صوراً عديدة، تؤدّي معنى مختلفاً عن المعاني التي تؤدّيها الصور الأخرى (٦). وضحت طبيعته في قوله: "فإذن ربّ هزل أداؤه في جدّ، وكلام جرى في باطل، ثمّ استعين به على حق، كما أنّه ربّ شيء خسيس توصل به إلى شريف، بأن ضرب مثلاً فيه، وجعل مثلاً له... وعلى العكس، ربّ كلمة حق أريد بها باطل فاستحقّ عليها الذم... وربّ قول حسن لم يحسن قائله حين تسبب به إلى قبيح" (٧)، وقد سجّل لنا التاريخ إدراك بلغاء العربية القدماء لمفهومي (السياق) و(النظم) من خلال عبارتهم (مطابقة الكلام لمقتضى الحال)، التي ولّدت مقولتهم (لكلّ مقام مقال)، ولكلّ كلمة مع صاحبها مقام. وعليه، فإنه يمكننا تمثيل ما سبق بالشكل الآتي:

المقام = الشكّل ( وظيفية لغوية، تؤدّي حسب المواقف المختلفة )

السياق = النّظّم  
(الكلام المنطوق) = المضمون

من هنا يتّضح لنا أنّهم قد انطلقوا في مباحثهم من فكرة المقام، الذي ربطوا فيه الشكّل بالمضمون، فأصبح معيار الكلام في باب الحسن والقبول بحسب مناسبة الكلام لما يليق به (مقتضى الحال، الموقف) أي (المقام) (٨).  
وبذا، يكون تراثنا البلاغي قد أشار بدقة إلى المقامية، وهذا التقيّد البلاغي بالمقام؛ سبب كافٍ لتنبّين المقامية، التي تُعنى بالفهم والإفهام والتعبير والتأثير، فتدعم الارتباط الوثيق بين المقام والمقال أو بين التركيب والمقصد أو بين الصورة البلاغية والحال وتجعلهما (نسيجاً) تعبيرياً واحداً؛ لنجد أنفسنا أمام مصطلح (المقام) المرتبط بالمقال، الذي هو النّصّ أو الخطاب.

### المقامية وعلاقتها بالنّصّ

رصد القدماء العديد من الظواهر النّصّية: كالتكرار، والإحالة، والربط وغيرها؛ بعد شرحهم وتحليلهم للنصوص العربية. وليس المعني من وقوفنا على موقف القدماء من دراسة النصوص وتحليلها المفسرين والبلاغيين وحدهم، بل نعني أيضاً النّحاة الذين تعاملوا مع النصوص، وخاصة النّصّ القرآني؛ لتحليله، وفهمه، والوقوف على أسرار إعجازه على غير ذلك ممّا يقتضي نظرة كلية وشاملة إلى النّصّ. كان لمصطلح "السياق" حضور قويّ في النّصّ العربي القديم، أمّا حديثاً فقد استعملت كلمة "السياق" في معانٍ مختلفة؛ إذ أصبح هناك ما يسمّى بالسياق اللغوي، والسياق العاطفي، والسياق الموقفّي، والسياق الثقافيّ، وهو ما أكده (أولمان) بقوله: "إنّ السياق ينبغي أن يشمل - لا الكلمات والجمل الحقيقية السابقة واللاحقة فحسب - بل والقطعة كلّها، والكتاب كلّّه، كما ينبغي أن يشمل - بوجه من الوجوه - كلّ ما يتصلّ بالكلمة من ظروف وملابسات، والعناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة، لها هي الأخرى أهميتها في هذا الشأن" (٩).

يتّضح مما سبق أنّ (أولمان) قسّم السياق إلى نوعين هما: سياق لغويّ، وآخر غير لغويّ (١٠)، إذ يتمثّل النوع الأوّل منهما في العلاقات الصّوتية، والصرفية، والمعجمية، وهو النّظّم (١١) في علم العربية. أمّا النوع الثّاني فهو "السياق غير اللغويّ"؛ أي المقام في علم العربية (١٢)، الذي يندرج تحته السياق العاطفي، والثقافي، والاجتماعي.  
وعليه، فإنّه يمكننا القول إنّ السياق غير اللغويّ يحتوي على كلّ عامل يؤثّر في تفسير التعبير (١٣)، كالظروف الاجتماعية (الجوّ العام)، التي يمكن أن تؤخذ بعين الاعتبار؛ لدراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي والسلوك اللغويّ (١٤).

### المبحث الأوّل: أسباب النزول وعلاقتها بالمقامية

لما كان مدار علميّ البيان والمعاني الذي يعرف بهما إعجاز نظم القرآن الكريم، فضلاً عن معرفة مقاصد كلام العرب، معرفة مقتضيات الأحوال والمقامات. فمن الأجدر - بداية - أن يكون لنا وقفة نتعرّف من خلالها إلى المقصود بسبب النزول، وكيف يعتبر مثلاً للمقامية.

عرّف الزرقاني (ت ١٣٦٧ هـ) سبب النزول بقوله: "هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدّثة عنه أو مبيّنة لحكمه أيام وقوعه" (١٥)، أمّا الشّيخ القطان (ت ١٤٢٠ هـ) فقد عرّفه بقوله: "هو ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال" (١٦).  
من الملاحظ في التعريفين السابقين لسبب النزول أنّهما يتضمّنان الحوادث والمواقف والأسئلة التي نزل بشأنها القرآن الكريم وقت

وقوعها؛ وفي هذا وضوح جليّ لدلالة الحال المرتبطة بمتغيرات أطراف الخطاب، وبالحالات النَّفسية أو الدَّهنية للإنسان وتقلباتها. وهذا ما أكدّه الغزالي(ت٤٤٥هـ) بأن الأحوال شعور نفسيّ، لا سيطرة للإنسان عليها...كلمته بجوعه، وعطشه، وخوفه، وفرحه، وهي أحوال باطنة، يدركها من ليس له حواس خمس(١٧)، والملمح اللافت للنظر هنا أنّ هذه المرحلة أوجبت على المتكلم مراعاة المقام النفسي.

نستنتج ممّا سبق أنّ كلمة (الحوادث) تشمل جميع الوقائع والمشاكل الاجتماعيّة من خصومات أو مناقشات أو رجاء من بعض الصحابة؛ لذا نزل القرآن؛ ليعالج أمراً ما كان واقعاً.

والأسئلة كلمة عامّة تشمل الفتاوى والأسئلة العلميّة المتعلّقة بالإيمان، وكلمتا (الحوادث والأسئلة) تشملان كلّ ما يتعلّق بموضوع سبب النزول(١٨). لعلّ هذا يقودنا إلى القول إنّ الحال هو المقام أيضاً، فهما متّحدان. ولا يتغيّران إلا أنّ الحال محدّدة بزمان ومكان، والمقام بمعزل عن ذلك. والفرق بينهما هو "فرق ما بين السكون والحركة أو بين المعيار والتطبيق" (١٩).

إنّ معرفة أسباب نزول آيات القرآن الكريم تعين على فهم وتفسير آياته، وقد عدّ بعض العلماء معرفة أسباب النزول أحد المرجّحات في تفسير القرآن الكريم، ولذلك فإنّ العلم بأسباب النزول من العلوم الضّروريّة للمفسّر، وهذا ما يتّضح من قول الإمام الشاطبي(ت٧٩٠هـ): "معرفة أسباب التنزيل لازمة لمن أراد علم القرآن، والدليل على ذلك أمران أحدهما: أنّ علم المعاني والبيان الذي يعرف به إعجاز نظم القرآن، فضلاً عن معرفة مقاصد كلام العرب، إنّما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال؛ حال الخطاب من جهة نفس الخطاب أو المخاطب أو المخاطب أو الجميع؛ إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حاليّ وبحسب مخاطبيّ وبحسب غير ذلك؛ كالاستفهام لفظه واحد، ويدخله معانٍ أخرى من تقرير وتوبيخ وغير ذلك، وكالأمر يدخله معنى الإباحة والتّهديد، ولا يدلّ على معناها المراد إلا الأمور الخارجة، وعمدتها مقتضيات الأحوال" (٢٠).

### المبحث الثّاني: تحليل آيات سورة التّوبة

قال تعالى: "أَجَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (٢١).

بدأت الآية باستخدام همزة الاستفهام الاستنكاري، بما يناسب مقام التوبيخ والاستنكار على من يسوّي بين هذه الأعمال، أي (السقاية والعمارة) من جهة، وبين (الإيمان والجهاد) من جهة أخرى، وقد أعقب قوله تعالى: "لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ"، فاستخدام الهمزة في مقام الاستنكار يشابه قوله تعالى: "أَفَأَنْتَ تَكْفُرُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ" (٢٢). أمّا عن الحذف الواقع في الآية، فهو لمناسبة حال التفضيل؛ إذ الأصل أن يقارن الله بين أصحاب هذه الأعمال (السقاية والعمارة) وبين (من آمن وجاهد).

وعليه، يكون تقدير الكلام "أجعلتم أهل أو أصحاب سقاية الحاج"، فحذف المضاف وأبقى المضاف إليه؛ لأنّ الحديث عن أهل أو أصحاب سقاية الحاج. وفيما سبق توضيح عظيمة الجهاد والإيمان، فقد فضّل أصحابهما ليس على أصحاب الأعمال الأولى (العمارة والسقاية) فحسب، بل على عين الأعمال على ما فيها من الكرامة والفضل.

وقد أورد الزركشي(ت٩١١هـ) قولاً للقرطاجني(ت٦٨٤هـ)، فيه بيان للمقامات التي يقع فيها الحذف حيث يقول: "إنّما يحسن الحذف ما لم يشكل به المعنى؛ لقوة الدلالة عليه أو يقصد به تعديد أشياء، فيكون في تعداها طول وسأمة فيحذف، ويكتفى بدلالة الحال عليه، وتترك النفس تجول في الأشياء المكتفى بالحال عن ذكرها على الحال" (٢٣). وبهذا، يثبت حدوث الحذف في المقامات التي يراد بها التوبيخ والتعجب والتّهويل على التّفوس. وقد ناسب المقام ما صحّ من أسباب النزول لهذه الآية، وهو ما أورده ابن جرير بسنده إلى التّعمان بن بشير قال: "كنت عند منبر رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقال رجل: ما أبالي ألا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمّر المسجد الحرام. وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل ممّا قاتم، فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه، فأنزل الله الآية" (٢٤).

"Do you consider the providing of drinking water to the pilgrims and the maintenance of Al - Masjid Al - Haram (at

Makkah) as equal to the worth of those who believe in Allah and the last Day, and strive hard and fight in the Cause of Allah? They are not equal before Allah. And Allah guides not those people who are the Zalimun (polytheists and wrongdoers)" (٢٥).

ترجم المترجمان "أجلتكم" بـ (Do you consider) ، وترجمتها الحرفية هي: (هل تعتبرون) ، وهذا يوضح التغيير في ترجمة الصيغة الزمنية، حيث نقلنا التعبير من الماضي "أجلتكم" ، الذي يفيد التعليق على الحادثة الواردة في أسباب النزول إلى المضارع، الذي يفيد الاعتقاد الدائم. وهو ما أضعف مقامية التعبير، وفصم ارتباطه أو كاد بأسباب النزول الصحيحة، أي حاجج المسلمين عند المنبر في فضل الأعمال. وعليه، فإننا نرى أنّ من الأفضل استعمال صيغة الماضي (Did you)؛ لإشعار السامع بوقوع الحدث، كما هو الحال في النص العربي المحكم المجيد.

قال تعالى: "وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسَخَطُونَ" (٢٦).

تمّ التعبير عن رضا اللامزين بالفعل (رضوا)؛ أي جملة فعلية فعلها ماضٍ؛ لإفادة سرعة انقضاء الرضا عنهم، بينما عبّر عن سخطهم بالجملة الاسمية (هم يسخطون)؛ لإفادة لصوق السخط بهم واستمراره لديهم. وهذا يدلّ على أنّ ربّ العزة تعالى يخاطبهم بمقام الغضب، واصفًا حالهم وهي عيبتهم على النبيّ الأمين تزيقه للصدقات، الأمر الذي دفعهم إلى ادعاء الفقر للحصول على مبتغاهم. وقد ناسب الحديث عن المناهقين استخدام ضمائر الغائب، فتعريف المسند إليه بالإضافة (يلمزك) يتفق وحال إفادة الوصف، ومنه قوله تعالى: "فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ" (٢٧).

ونرى أنّ التلميح دون التصريح، أفاد توضيح حقيقتهم في إبطان الكفر، وإظهار الإيمان وعدم الرضا بأمر الله ورسوله، فهم يلمزون ويعيبون، ويرضون إن أعطوا على الرغم من تخلفهم عن المشاركة في الجهاد، واختلاق الأعداء والأكاذيب حتى لا يذهبوا. ولهم في هذه السورة الكثير من الموافق، ومنها ما ذكرته الآية "وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَذُنٌ لِّي وَلَا تَفْتَنِي إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ" (٢٨)، أنهم لا يخرجون لقتال الروم في تبوك؛ خشية فتنة النساء وغير ذلك، وما يثبت ذلك، التسمية الأخرى للسورة وهي (الفاضحة)، التي تفضح فعلهم في الدنيا والآخرة، وهو ما يتناسب مع ما صحّ من أسباب النزول، حيث روى ابن جرير بمسندة إلى أبي سعيد الخدري، ونقله ابن كثير والقرطبي، وهي قصّة ذو الخويصرة؛ إذ بينما يقسم النبيّ - صلى الله عليه وسلم - ، جاء عبد الله بن ذي الخويصرة فقال: "أعدل يا رسول الله"، فقال: "ويلك من يعدل إذا لم أعدل". قال عمر بن الخطاب: دعني أضرب عنقه، قال: "دعه فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر في قدذه، فلا يجد شيئاً، ثمّ ينظر في نصله، فلا يجد شيئاً، ثمّ ينظر في رصافه، فلا يجد شيئاً قد سبق الفرت والدم، آيتهم رجل أسود إحدى يديه أو قال: تديبه مثل ثدي المرأة أو قال: مثل الضبعة تدردر، يخرجون على حين فترة من الناس". قال أبو سعيد: أشهد، سمعت من رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وأشهد أنّ علياً قتلهم وأنا معه. جيء بالرجل على النعت الذي نعته رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: فنزلت فيهم: "وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسَخَطُونَ" (٢٩) " (٣٠).

"And of them are some who accuse you (O muhammad (صلى الله عليه وسلم) in the matter of ( the distribution of) the alms. If they are given part thereof. they are pleased, but if they are not given thereof, behold! They are enraged!" (٣١)

لم يفرّق المترجمان بين حالة الرضا لدى من يعطي الصدقة، والتي عبّر عنها المولى-عز وجل- بالماضي، وحالة السخط لدى من لم يعط منها، والتي عبّر عنها بالجملة الاسمية، بل سويًا في وصفهما بين الحالين، وذلك باستخدامهما لاسم المفعول هم مسرورون (They are pleased، وهم غاضبون) (They are enrage).

ونرى أنّ من الأفضل التعبير باسم الفاعل (الفعل المستمر) (enraging)؛ ليفيد الاستمرارية واللصوق ومرور الوقت، والتعبير عن الرضا بالماضي (pleased) دون (are)؛ أي (الفعل المساعد)، فلو عبّر عن سخطهم باستعمال اسم الفاعل (الفعل المستمر)، وعبّر عن رضاهم بالماضي البسيط؛ لكان أقرب إلى النصّ وتحققت المقامية.

قال تعالى: "الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جَهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" (٣٢).

عند تأملنا الآية السابقة وإجراءنا لمقابلة بين:

الَّذِينَ ← يلمزون ← وهم السَّخَرُونَ.

الَّذِينَ ← لا يجدون ← وهم المطَّوِّعُونَ.

نلاحظ أنه من السَّائِغِ لغة قول (الَّذِينَ لا يجدون) دون واو الاستئفاف، ولهذا الاستخدام شواهد في العربية، منها قوله تعالى: "لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ" (٣٢)؛ لذا فإننا نرى أنّ في استعمال (الواو)، منع لأيّ ليس بين (الَّذِينَ يلمزون) و(الَّذِينَ لا يجدون)؛ وذلك حتى يشعر القاريء أنّ هؤلاء بالتأكيد غير أولئك، فمجيء المضارعات (يلمزون، لا يجدون) ينقل صورة المناقضين واستمراريتها، وفي هذا بيان لحالهم في التعامل مع المؤمنين، الأمر الذي ينقل القاريء إلى جو أسباب النزول.

وإذا قابلنا بين الفعلين:

يسخرون ← فعل مضارع ← سخر ← فعل ماضٍ.

فإننا نلاحظ استخدام الفعلين (يسخرون، سخر)، وقد ورد هذا الاستعمال في شواهد قرآنية منها قوله تعالى: "ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين" (٣٤)، ويعود هذا إلى أسباب متعلّقة بمقامية الآية وهي: (حادثة السَّخْرَةِ وَاللَّمْزِ وتوبيخ الفاعلين وتبكيّتهم)، أجمالها بما هوأت:

أولاً: أنّ في استعمال الفعل المضارع (يسخرون) توضيح لمعنى اللّمز، الوارد في أول الآية. ولما كان اللّمز مضارعاً وجب كون السَّخْرَةِ مضارعاً أيضاً، وإلا فالحادثة أو الحوادث تكون قد تمّت قبل نزول الآية.

ثانياً: إنّ استعمال الفعل المضارع يشير إلى تعدّد السَّخَرِينَ وتكرار السَّخْرَةِ منهم.

ثالثاً: جاءت صيغة الفعل (سخر) بالماضي؛ ردّاً على أعمالهم بعد مضيتها.

رابعاً: الفعل الماضي (سخر) لا يعني بالضرورة السَّخْرَةِ المعروفة بين العباد، بل هي صدور حكم ربّاني لا رادّ له، وهو ما يتناسب مع صيغة الماضي دون المضارع.

خامساً: جاء الفعل الماضي (سخر)؛ لبيان تحقّق العذاب ووقوعه دون أدنى شكّ، مهما تكرّرت الصورة على مرّ الزّمان.

وهذا يناسب مقام التوبيخ تعليّقاً على الحوادث التي أشار إليها الحديث، الذي رواه ابن جرير بسنده إلى ابن مسعود، وأورده الواضع في كتابه بقوله: "حدّثنا عبيد الله بن سعيد حدّثنا أبو النعمان هوالحكم بن عبد الله البصري، حدّثنا شعبة عن سليمان بن أبي واثل عن أبي مسعود - رضي الله عنه - قال: لما نزلت آية الصدقة كنّا نحامل، فجاء رجل فتصدّق بشيء كثير فقالوا: مرائي، وجاء رجل فتصدّق بصاع، فقالوا: إنّ الله لغني عن صاع هذا، فنزلت الآية" (٣٥).

"Those who defame such of the believers who give charity ( in Allah's Cause) voluntarily, and such who could not find to give charity ( in Allah's Cause) except what is available to them - so they mock at them (believers); Allah will throw back their mockery on them, and they shall have a painful torment" (٣٦).

نرى أنّ الحدث السببي في الآية هو تطوُّع المؤمنين في الصدقات، وقد ترجم المترجمان (المطَّوِّعِينَ) بـ(المؤمنين)، الذين يعطون الصدقات في سبيل الله طوعاً أو اختياراً، ويتّضح ذلك في ترجمتهما:

(the believers who give charity ( In Allah's Cause) voluntarily)

ثمّ يظهر المترجمان المعنى الدقيق للسَّخْرَةِ، أو للفعل (يسخر) بترجمة (mock) بعد (so)، التي تبيّن أنّ السَّخْرَةَ وقعت على أولئك المطَّوِّعِينَ. أمّا تعبير المترجمين عن صيغة الفعل الماضي (سخر) بصيغة المستقبل، فإنّني أرى أنّها قد أحسنا التعبير عنه بقولهما:

(will throw back their mockery on them)؛ أي سوف يجعل الله سخريّتهم ترتدّ عليهم أو رمى بها عليهم، وذلك في العذاب

الآخروي، وهذا يتناسب مع استعمال (will) (سوف).

وفي استعمال (those) (أولئك) ، قبل الاسم الموصول (who) ، عدم مطابقة مع النَّصِّ في لفته الأمّ، إلا أنّ البحث يرى إفادته استمرار الكلام عن المنافقين الوارد في كامل السّياق، وهو ما يعدّ تعليقاً على حادثة اللزم. يتّضح من ذلك ربط المترجمين ترجمتهما بأسباب النزول الواردة في النَّصِّ القرآني.

قال تعالى: "سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ" يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن اللّهُ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ" (٢٧).

عند تأملنا للآية السابقة وإجرائنا للمقارنة بين:

التصرّف	الهدف	الحكم
سيعلفون	لتعرضوا	اعرضوا
يحفون	لترضوا	لا يرضى

فإننا نلاحظ أنها منحصرة في الوجهين الآتين:

الوجه الأول: الترتيب الزمني حيث نزلت الآية "سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ" (٢٨)، قبل العودة من غزوة تبوك (العسرة)، أما الآية "يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن اللّهُ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ" (٢٩)، فقد كان نزولها بعد العودة من غزوة تبوك؛ أي بعد حلفهم.

أما الوجه الآخر فيتمثل بنزول الآيتين قبل العودة وقبل الحلف، وقد أتى الحلف بهدفين أولهما: (الإعراض)، وثانيهما: (الرضى)، وقد أقرّ الله الإعراض وحذّر من الرضا. ومن الملاحظ ذكر الله - سبحانه وتعالى - للفظ الجلالة في الآية "سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ" بينما لم يذكر في الآية "يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن اللّهُ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ"، على الرغم من أنّ الحلف كان دائماً بالله من قبل المنافقين الذين يظهرون الإسلام؛ حيث أضيف لفظ الجلالة في (الآية الأولى)؛ للإخبار عمّا سيحدث، وهو ما حدث فعلاً (الحلف بالله). أما في (الآية الثانية)، فقد كان تعليقاً على حادث الحلف بأنهم يحلفون لكم؛ لترضوا عنهم غير ملتفتين لرضا الله، محذراً المسلمين من الرضا عنهم حاكماً أنه - عزّ وجلّ - لن يرضى عنهم.

وعليه، فإنّه من الواضح ارتباط النَّصِّ المحكم بالمقام ارتباطاً وثيقاً، حيث جاءت الآيتان في سياق التعليق على غزوة (العسرة)، كما استخدم فيهما ألفاظ الزّمان في حال الاستقبال، والمضارع، والأمر، ممّا أضفى الكثير من الحيويّة والحركة على التعليق القرآني، وهو ما يناسب مقام الإنكار والتوبيخ للمنافقين، الوارد ذكره في أسباب النزول ممّا رواه ابن جرير بسنده إلى كعب بن مالك أنّ عبد الله بن كعب قال: سمعت كعب بن مالك يقول: "لما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلّم - من تبوك جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله - صلى الله عليه وسلّم - علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله، وصدّقته حديثي فقال كعب: والله ما أنعم الله عليّ من نعمة قطّ بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدق رسول الله - صلى الله عليه وسلّم - ألا أكون كذبتّه فأهلك كما هلك الذين كذبوا، إنّ الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرّ ما قال لأحد: "سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ" يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن اللّهُ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ" (٤٠) (٤١).

"They will swear by Allah to you (Muslims) when you return to them. that you may turn away from them. So turn away from them. surely, they are Rijsu [ i.e. Nagasun (impure) because of their evil deeds], and Hell is their dwelling place - a recompense for that which they used to earn. They (the hypocrites) swear to you (Muslims) that you may be pleased with them. but if you are pleased with them. certainly Allah is not pleased with the people who

are A – Fasiqun (rebellious, disobedient to Allah) " (٤٢) .

نلمح في ترجمة المترجمين عناية في إبراز المقامية إلى حد كبير، وذلك عند استعمالهما لـ (will swear when you return to them) أي: (سيحلفون عندما ترجعون لهم). وأرى أن استعمالهما للفظه (when) مؤكدة الوقوع بدلاً من (If) محتملة الوقوع، عين ما يقصده النص المحكم من حتمية العودة والحلف الكاذب؛ فإذا تعني في النص (when) لا (If) .

### الخاتمة :

بعد أن أتممت دراسة "المقامية" في سورة التوبة على المصحف المترجم؛ وذلك بالتحقق من ارتباط الآية المترجمة بسبب نزولها، أتضح لنا فيما سبق عرضه ما يلي:

١. اهتمام علماء العربية بصناعة الكلام وهندسته على الطرق الصحيحة.
٢. عناية علماء العربية بالفروق الدقيقة لمواقع الألفاظ، والربط بينها وبين المعاني والأغراض والمقامات التي جاءت لتعبر عنها.
٣. النحو مقياس لغوي تعرف به فصاحة الكلام، فدراسته مفتاح كشف العلاقات التركيبية المفضية إلى الدلالة على مواطن الجمال أو القبح، وهو المفتاح الذي يفتح أبواب البلاغة.
٤. تفتن علماء البلاغة إلى أهمية العلاقة القائمة بين علمي النحو والمعاني؛ إذ إننا نراهم يصلون طرق التركيب وخواصه بالمقام، مركزين على أهمية المقام في تحديد طرق التركيب، والتي هي من صميم الدرس النحوي.
٥. النظم والنحو اسمان لمفهوم واحد، فليس النظم شيئاً غير النحو، كما أن النحو هو مراعاة قواعد النظم.

### الهوامش :

× لما كان السبب طريفاً إلى نتيجة أو مقيداً بنتيجة تعلقه، رأيت أن اصطلاح أسباب النزول لا يغطي أبعاد مرادنا، إذا ما أردنا الحديث عن ظروف سورة التوبة بعمومها، فالأمر يحتاج تحليلاً، وتدقيقاً، وانتقالاً من هنا إلى هناك بشكل أكبر من الاكتفاء بالأسباب، من ثم فإن المقامية هو مصطلح أعم وأشمل وأوسع رحابة أمام الباحث.

- (١) القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة ص ١١.
- (٢) انظر: استيتية: منازل الرؤية" منهج تكاملي في قراءة النص" ص ١٢٩، وأولمان: دور الكلمة في اللغة ص ٦٩-٧١.
- (٣) الجرجاني: دلائل الإعجاز ص ٤٨.
- (٤) انظر: استيتية: منازل الرؤية" منهج تكاملي في قراءة النص" ص ١٢٩.
- (٥) الجرجاني: دلائل الإعجاز ص ٥٢.
- (٦) انظر: استيتية: منازل الرؤية" منهج تكاملي في قراءة النص" ص ١٢٩، والسكاكي: مفتاح العلوم ص ٢٥٦.
- (٧) الجرجاني: دلائل الإعجاز ص ٥٥.
- (٨) انظر: السكاكي: مفتاح العلوم ص ٢٥٦، ونجار، منال، المقام في العربية في ضوء البرامجماتية، أطروحة دكتوراة، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، الأردن، ٢٠٠٤، ص ١٨.
- (٩) أولمان: دور الكلمة في اللغة ص ٦٨.
- (١٠) انظر: نجار] أطروحة سابقة [ص ١٤.
- (١١) استيتية: منازل الرؤية" منهج تكاملي في قراءة النص" ص ١٢٩، و ٣٣١-٣٣٢.
- (١٢) انظر: المرجع السابق: ص ١٢٩.

(١٣) Contextualism by Marcelo Dasgal. in Possibilities And Limitations Of Pragmatics by Herman Parret. P (١٥٥).

- (١٤) انظر: بالمر: مدخل إلى علم الدلالة ص ٦٠-٦١.
- (١٥) الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن ص ٦٤.
- (١٦) القطنان: مباحث في علوم القرآن ص ٧٨.
- (١٧) الغزالي: الولد، المقدمة، ص ١٩.
- (١٨) انظر: السيوطي: الإتيان في علوم القرآن ص ٧٦، والزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن ص ٦٤-٦٥.
- (١٩) حسان: تمام، المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة. مجلة فصول، العدد ٣-٤، ١٩٨٧، ص ٢٩.
- (٢٠) الشاطبي: الموافقات أو عنوان التعريف بأسرار التكاليف ٤/٢٩٢.
- (٢١) سورة التوبة، آية ١٩.
- (٢٢) سورة يونس، آية ١٠.
- (٢٣) الزركشي: البرهان في علوم القرآن ٣/١٠٩، والسيوطي: الإتيان في علوم القرآن ص ٥٣٤.
- (٢٤) الوادعي: الصحيح المسند من أسباب النزول ص ٧٥، وانظر: الطبري: جامع البيان عن تأويل القرآن ١٠/١٠٩، والمخشي: الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم الأقاويل ٢/٢٤٣-٢٤٤، وأبو حيان: البحر المحيط في التفسير ٥/٣٨٨.
- (٢٥) Al-Hilali & Khan (١٩٩٦) . p.٢١٢.
- (٢٦) سورة التوبة، آية ٥٨-٥٩.
- (٢٧) سورة المؤمنون، آية ٧.
- (٢٨) سورة التوبة، آية ٤٩.
- (٢٩) سورة التوبة، آية ٥٨.
- (٣٠) الوادعي: الصحيح المسند ص ٧٦.
- (٣١) Al-Hilali & Khan (١٩٩٦) . p.٢١٨.
- (٣٢) سورة التوبة، آية ٧٩.
- (٣٣) سورة التوبة، آية ١١٧.
- (٣٤) سورة الأنفال، آية ٣٠.
- (٣٥) الوادعي: الصحيح المسند ص ٧٧، وانظر: القرطبي: مختصر تفسير القرطبي ٨/١٠٦-١٠٨.
- (٣٦) Al-Hilali & Khan (١٩٩٦) . p.٢٢١.
- (٣٧) سورة التوبة، آية ٩٥-٩٦.
- (٣٨) سورة التوبة، آية ٩٥.
- (٣٩) سورة التوبة، آية ٩٦.
- (٤٠) سورة التوبة، آية ٩٥-٩٦.
- (٤١) الوادعي: الصحيح المسند ص ٧٩.
- (٤٢) Al-Hilali & Khan (١٩٩٦) . p.٢٢٤-٢٢٥.

## ثبت المصادر والمراجع:

### أولاً: المصادر

١. Muhammad Taqi ud Din al Hilali and Dr. Muhammad Muhsin Khan. Translation of the meanings of the Noble Qur`an, king Fahd Complex for the Holy Qur`an, Madina. k.S.A.



٢. الأندلسي: أثير الدين محمد بن يوسف بن علي (ت ٥٧٤٥هـ)، البحر المحيط في التفسير، إشراف: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت-لبنان، (د. ط)، ١٤٢٦م / ٢٠٠٥.
٣. الجرجاني: عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٤٧١هـ)، دلائل الإعجاز، اعتنى به: علي محمد زينو، مؤسسة الرسالة، (د. ب)، ط ١، ١٤٢٦م / ٢٠٠٥.
٤. الزرقاني: محمد عبد العظيم (ت ١٣٦٧هـ)، مناهل العرفان في علوم القرآن، خرج آياته ووضع حواشيه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان، (د. ط)، ٢٠١٢.
٥. الزركشي: بدرالدين محمد بن عبد الله (ت ٥٩٤هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: أحمد بن علي، دار الفد الجديد، القاهرة - مصر، ط ١، ١٤٣٦م / ٢٠١٥.
٦. الزمخشري: محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي (ت ٥٢٨هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم الأقاويل، طبعة جديدة حققها وخرج أحاديثها وعلق عليها على نسخة خطية: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط ٢، ١٤٢١م / ٢٠٠١.
٧. السكاكي: يوسف بن محمد بن علي (ت ٦٢٦هـ)، مفتاح العلوم، حققه وقدم له: عبد الحميد هندواوي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط ١، ١٤٢٠م / ٢٠٠٠.
٨. السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ)، الإقتان في علوم القرآن، طبعة جديدة محققة مخرجة الأحاديث مع الحكم: شعيب الأرنؤوط، اعتنى به وعلق عليه: مصطفى شيخ، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٣٤م / ٢٠١٣.
٩. الشاطبي: إبراهيم بن موسى اللخمي (ت ٧٩٠هـ)، الموافقات "التعريف بأسرار التكليف"، طبعة مزيدة محققة ومصححة تحقيق: محمد مرابي، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، ط ١، ١٤٢٢م / ٢٠١١.
١٠. الطبري: محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، تفسير الطبري المسمى "جامع البيان في تأويل القرآن"، ضبط وتعليق: محمود شاكر، تصحيح: علي عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٢١م / ٢٠٠١.
١١. الغزالي: محمد بن محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ)، أيها الولد، تقديم وتحقيق وفهرسة: جميل حبيب، دار التربية، (د. ب)، (د. ط)، (د. ت).
١٢. القرطبي: محمد بن أحمد (ت ٦٧١هـ)، تفسير القرطبي، تحقيق: سالم البديري، تحقيق: سالم البديري، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٢٠م / ٢٠٠٠.
١٣. القزويني: محمد بن عبد الرحمن (ت ٧٣٩هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٠٥م / ١٩٨٥.
١٤. القطن: مناع بن خليل (ت ١٤٢٠هـ)، مباحث في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، ط ١، ١٤٠٠م / ١٩٨٠.

## ثانياً: المراجع

١. أولمان، ستيفن، دور الكلمة في اللغة، ترجمه وقدم له وعلق عليه: كمال بشر، دار غريب، القاهرة، ط ٢، (د. ت).
٢. استيتية، سمير، منازل الرؤية: منهج تكاملي في قراءة النص، دار وائل، عمان - الأردن، ط ١، ٢٠٠٣.
٣. بالمر، فرانك، مدخل إلى علم الدلالة، ترجمة: خالد جمعة، دار العروبة، الكويت، ط ١، ١٩٩٧.
٤. الوادعي، مقبل بن هادي، الصحيح المسند من أسباب النزول، دار ابن حزم، (د. ب)، ط ١، ١٤١٣م / ١٩٩٣.

## الكتب الأجنبية:

Marcelo Dascal. Contextualism. in possibilities And Limitations of Pragmatics. Proceedings of the Conference on Pargmatics. Mrbino, July ١٩٧٩ / ١٤ / ٨, by Herman Parret. Amsterdam Joh`n Benjamins B.v ١٩٨١.

## الرسائل الجامعية:

نجار، منال، المقام في العربية في ضوء البراغماتية، أطروحة دكتوراة، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، الأردن، ٢٠٠٤.

## الدوريات:

حسان: تمام، المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة. مجلة فصول، العدد ٣-٤، ١٩٨٧.